الفصل الثاني

من رحيق قصص الأنبياء

- نبي الله هود عليه السلام
- نبي الله صالح عليه السلام

نبي الله هود عليه السلام

الاسم والقبيلة:

هو هود من نسل نوح، وهو من قبيلة عاد، قال الله تعالى ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[1]، وسماه أخًا لهم لكونه من قبيلتهم لا من جهة أخوة الدين[2]، وكانت "عَادٍ"يسكنون الأحقاف[3] وكانت باليمن بين عمان وحضرموت[4] وهؤلاء هم عاد الأولى، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الصحام، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[5]، أي عاد إرم، وهم عاد الأولى، قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾[6]

بلسان قومه.

قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[7] وهذا من لطفه تعالى بخلقه أن يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما روى أبو ذر ﷺ قال: قال رسول الله

١- من الآية ٥٠ من سورة هود

٢- ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ج٦، ص٤٦٤

٣- هي جبال من الرمال

٤- إسماعيل بن كثير ، قصص الانبياء ، ص١٢٥

٥- الآيتان (٦،٥) من سورة الفجر

٦- الآية ٥٠ من سورة النجم

٧- من الآية ٤ من سورة إبراهيم

ﷺ "لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ نَبِيًّا إلا بِلُغَةِ قَوْمِهِ"[1] [رواه أحمد، الحديث ٢٠٤٤١]، وهكذا كان نبي الله هود عليه السلام يتحدث اللغة العربية كلغة قومه، فعن أبي در رضي الله عنه في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: "**أَرْبَعَةٌ مِنْ الْعَرَبِ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَمُحَمَّدٌ**"[رواه ابن حبان في صحيحه]، وعاد كانت من العرب العاربة، وهم الذين كانوا قبل نبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليهما السلام)[2]، وهم قبائل كثيرة منهم عاد، وثمود، وجرهم، وأما العرب المستعربة فهم من ولد نبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليهما السلام)

نفس وقوة

كان قوم عاد يتفنون في صناعتهم ومساكنهم، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ويتفاخرون بها حتى بلغ وصف الله عز وجل لمساكنهم بالانفراد في عظمة البناء، قال الله تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾[3]، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة واقواهم بطشًا، قال الله تعالى:﴿**وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً**﴾[4]،

١- هذه هي سنة الله في خلقه أنه ما بعث من نبي إلى أمته إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبي بتبليغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمدًا من عند الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما روى جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ "أعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياء قبلي نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهْرٍ وجُعلت لي الأرضُ مسْجدًا وطهُورا وأيُّما رجُلٍ من أُمَّتِي أدركتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ = وأُحلتْ لي الغَنائمُ وكان النَّبيُّ يُبعثُ إلى قومِه خاصَّةً وبُعثتُ إلى الناس كافَّةً وأُعطيتُ الشَّفاعة"[رواه البخاري، الحديث ٤١٩]

٢- انظر إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، ص١٢٦

٣- الآيات٦-٨ من سورة الفجر

٤- من الآية ٦٩ من سورة الأعراف

وقال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1] وكانوا مع سكناهم في الجبال على السهول يتخذون في ساء القصور العظيمة على رءوس الجبال عنتًا ولعنًا، وكانت لهم بروح مشيدة يطون الجلود بسكناها، وأمدهم الله سبحانه المنعم بكل أسباب القوة والنعيم، فكانت عندهم المياه والجنات والأموال والأولاد وقوة الجسم، قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ*وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ*وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ*فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ*وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ*أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ*وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[2]

بداية الانحراف:

وكانت عاد أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، قال الله تعالى في سورة "المؤمنون" بعد قصة نبي الله نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ*فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[3] ولعل بداية الانحراف والابتعاد عن حادَّة الصراط المستقيم بسبب ذلك الترف والنعيم الذي كانوا يعيشون فيه: من العبث واللعب وعدم شكر الله على ما أنعم به سبحانه عليهم، فكفران النعم يؤدي إلى كفران المنعم، قال الله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[4]، أو أن هذه السلوكيات الأخلاقية السيئة مصاحبة لما هم عليه من الكفر والتكذيب.

١- من الآية ١٥ من سورة فصلت

٢- الآيات ١٢٨-١٣٥ من سورة الشعراء

٣- الآيات ٣١،٣٢ من سورة المؤمنون

٤- الآية ١٦ من سورة الإسراء

نظام شامل:

ولهذا جاءت دعوة نبي الله هود عليه السلام لتكون دعوة تعبيرية تستأصل جذور الشر من النفوس، فبدأ أولاً باستئصال الكفر من النفوس بقوله: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[1] فتوحيد الله أولاً وقبل كل شيء، وهو مفتاح الفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة، كما تصمَّمت دعوته تغيير الأخلاق والسلوكيات التي لا تتناسب مع خلال التوحيد والإيمان، فلفت أنظارهم إلى تَجبُّرهم واستكبارهم وتفاخرهم بقوتهم وتيْههم على جميع الخلق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[3]، ثم أرشدهم نبي الله هود عليه السلام إلى الجانب الروحي في حياتهم المعيشية فقد تدنَّوا في ماديَّتهم ولم يَسْمُوا بأرواحهم حتى إنهم غرقوا في العبث واللعب، قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[4] وقال تعالى ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[5] بل إن في هذه الآيات إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن في جانب البناء العمراني بل في كل معاملاته، وهو البعد عن العبث واللعب واستهداف الفائدة والمصلحة العلمية والعملية، فما لا مصلحة فيه في حياة المؤمن فهو

١- الآية ٦٥ من سورة الأعراف
٢- من الآية ١٥ من سورة فصلت
٣- الآية ١٣٠ من سورة الشعراء
٤- الآيتان ١٢٨، ١٢٩ من سورة الشعراء
٥- من الآية ٣٣ من سورة المؤمنون

مرفوض ومردود، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ*لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1].

وبذلك تكون دعوة نبي الله هود عليه السلام شاملة وانتظمت جميع شئون الحياة. في العقيدة والإيمان، وفي السلوك والأخلاق، وفي النفس والروح، وفي البناء والعمران، وهذا هو حقيقة الدين فهو: "نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء"[2]

تنوع وتناسب:

فالمتصدر للدعوة إلى الله يجب عليه أن يتنوع في عرض دعوته ويختار لإيصال فكرته أنسب الوسائل، ويراعي أحوال المدعو ومكان الدعوة وزمانها، وله في نبي الله هود عليه السلام القدوة والمثل فتارة يذكرهم بنعم الله عليه ليستثير فيهم شكر المنعم، قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3] وقال تعالى ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ*أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ*وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[4]، وتارة يبشرهم بنعيم الدنيا والآخرة إن هم آمنوا ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ

١- الآيات ١٦، ١٧ من سورة إبراهيم

٢- حسن البنا، رسالة التعاليم، الأصل الأول، ص٣٥٦

٣- من الآية ٦٩ من سورة الأعراف

٤- الآيات ١٣٢ – ١٣٤ من سورة الشعراء

قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[1]، وتارة أخرى يدرهم بعذاب الله من باب الشفقة والخوف عليهم ﴿ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وتارة أخرى يدخل في مناقشة علمية هادفة معهم ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾[3]، وقال تعالى ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[4]، وهو في كل هذا صابر عليهم، ومشفق عليهم، وناصح لهم، يقابل إساءتهم بالإحسان، قال تعالى على لسان قوم عاد: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ*قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ*أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[5]، حتى إذا استيأس من إجابتهم وهدايتهم أنذرهم بعذاب الله وأعلمها صريحة واضحة بهلاكهم، قال الله تعالى ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[6]، ودعا الله تعالى أن ينصره فقال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[7]

١- الآية ٥٢ من سورة هود
٢- من الآية ٢١ من سورة الأحقاف
٣- من الآية ٦٩ من سورة الأعراف
٤- من الآية ٧١ من سورة الأعراف
٥- الآيات ٦٦،٦٧ من سورة الأعراف
٦- الآية ٧١ من سورة الأعراف
٧- من الآية ٣٩ من سورة المؤمنون

الاستغفار قوة:

والحق أن دعوة نبي الله هودًا عليه السلام قومه وتبشيره لهم بالقوة وإدرار المطر يلفت الانتباه والأبصار ويدعو إلى التأمل والتفكير فإن إدرار المطر ومضاعفة القوة- وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود- من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال، فما علاقة الاستغفار والتوبة بذلك؟

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب وميسور بل واقع مشهود فإن بطاقة القلب والعمل الصالح في الأرض يريدان التائبين العاملين قوة. يريدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته في كل آن، ويريدانهم صحة في المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التي تطلق الناس أحرارًا كرامًا لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم، أمام قهار واحد تنحني له الجباه، كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة في الأرض، غير متغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق الجور حولها ودق الطبول

وأما إرسال المطر مدرارًا. فالظاهر للبشر أنه يجري وفق سنن طبيعة ثابتة في النظام الكوني ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محببًا في كل زمان ومكان، ومدمرًا في مكان ما وزمان ما، وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم، وأن يكون الدمار معه لقوم، وأن يُنْفِذَ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية، فهو خالق هذه العوامل، وجاعل الأسباب لتحقيق سننه على كل حال ثم تبقى

وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرّف الأسباب والظواهر، وذلك لتحقيق قدر الله كيفما يشاء وحيث يشاء، بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض، غير مقيد بما عهده الناس في العالم[1]

براءة:

فليس هناك أمر أوقع في نفوس المدعوين وإقبالهم على الداعية من شعورهم بإخلاص من يحدثهم وتبرئته من الأهواء والأغراض، وبراءته عن المطامع الشخصية، واحتقاره للمنافع المادية، فلا يسأل الناس شيئًا ولا يقتضيهم مالاً ولا يطالبهم بأجر ولا يَتَرَبَّدُ لهم وجاهة، ولا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا فما أجره في ذلك إلا على الذي فطره، قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَاقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[3]، فالرائد لا يكذب أهله والناصح لا يغش قومه

عاد واستكبار

تلك كانت دعوة هود عليه السلام ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة، وربما لأن الطوفان كان قريبًا منهم، وكان في ذاكرة القوم وعلى لسانهم، وقد ذكرهم به في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4]. فأما

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ١، ص (١٨٩٧ - ١٨٩٨) بتصرف

٢- انظر حسن الباء، دعوتنا، ص١٣

٣- من الآية ٦٨ من سورة الأعراف

٤- الآية ٥١ من سورة هود

٥- من الآية ٦٩ من سورة الأعراف

قومه فقد طعنوا به الطعون: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ*إِنْ نَقُولُ إِلَا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[1]، إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يعلموا أن هودًا يهدي؛ لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء، فأصيب بالهذيان[2].

استعلاء بالحق.

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي والتوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه والوعيد والإنذار الأخير للمكذبين والمفاصلة بينه وبين قومه وبعض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب، فتوجه إليهم قائلاً: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ*مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ*إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[3]

إنها انتفاضة التبرؤ من القوم-وقد كان منهم وكان أخاهم- وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد انحدوا عن طريق الله طريقًا.

وهو يُشهد الله على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم؛ كي لا تبقى في نفوسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم

وذلك كله من عزة الإيمان واستعلائه، ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

١- الآيتان ٥٣،٥٤ من سورة هود

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٣، ص١٨٩٨

٣- الآيات٥٤-٥٧ من سورة هود

إنه الإيمان والثقة والاطمئنان الإيمان بالله والثقة بوعده والاطمئنان إلى نصره، الإيمان الذي يخالط القلب فإن وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة، لأنها ملء يديه وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعدًا بالمستقبل في ضمير الغيب، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب[1]

آخر الدواء الكي

فإن العصو إذا فسد وأصبح وبالاً على صاحبه واستعصى على الشفاء وجيفَ على الجسد من عَدْوى الفساد والهلاك كان بتره هو الحل الأوحد، وكذلك الحال في سنن المجتمعات فإن الناس إذا لم تستقم على صراط الله وطريقه ودعوة الرسل ومنهجها كان زوالها أفضل من بقائها، لأنها فقدت سبب بقائها، وغاية حياتها، بتوحيد الله في أرضه، وتعميرها على منهجه ونظامه، وهكذا كان الحال مع قوم عاد، قال تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] وذلك مع فسادهم وإفسادهم في الأرض ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[3]، واستعصوا على الهداية والرشاد بعد قول نبي الله هود عليه السلام لهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[4]

١- سيد قطب، مرجع سابق، جـ٣، ص ١٨٩٩

٢- الآية ١٣٩ من سورة الشعراء

٣- الآيات ١٢٨- ١٣٠ من سورة الشعراء

٤- الآية ١٣١ من سورة الشعراء

أسباب النقمة والهلاك:

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[1]

قال السدّي: ما بُعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه. وهو إن دل على شيء فإنما يدل على شناعة ما فعله قوم عاد، وتوصحه الآية السابقة لهذه اللعنة، وهو الخضوع لأوامر كل متسلط عليهم في مقابل رفض الخضوع لله جل وعلا، وهم مسئولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم، ولا يكونوا ديولاً فيهدروا آدميتهم، ودعوة التوحيد تصر-أول ما تصر- على التحرر من الخضوع لغير الله والتمرد على سلطان الأرباب والطغاة، وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية واتباع الجبارين المتجبرين جريمة يستحق عليها الفاسقون الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

لقد خلق الله الناس ليكونوا أحرارًا لا يسألون عن حريتهم هذه لطاغية ولا لرئيس أو زعيم فهذا مناط تكريمهم[2].

ولا عجب أن يلعنهم كل نبي جاء بعدهم حتى يحذر أقوامهم ومن بعدهم شناعة ما فعلوه وجرم ما انتهكوه فإنه سبب كل هلاك ونقمة.

جزاءً وفاقًا:

ولشناعة جرمهم كانت بشاعة الهلاك والدمار الذي نزل بهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ

١- الآيات ٥٩، ٦٠ من سورة هود

٢- انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٤، ص١٩٠٠ - ١٩٠١ بتصرف واختصار

الظَّالِمِينَ﴾[1]، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾[2]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ*تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[3]، ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ[4]*مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ[5]﴾[6]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ*إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[7] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ*تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[8]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ[9]*سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[10] فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ*فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[11]، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ"[12] [رواه البخاري، الحديث ٩٧٧].

١- الآية ٤١ من سورة المؤمنون

٢- الآية ١٦ من سورة فصلت

٣- الآيتان ٢٤، ٢٥ من سورة الأحقاف

٤- المفسدة التي لا تنتج شيئًا

٥- كالشيء الهالك

٦- الآيتان ٤١، ٤٢ من سورة الذاريات

٧- شديدة البرودة

٨- عاتية شديدة الهبوب

٩- حسومًا متتابعات

١٠- الآيات (٦-٨) من سورة الحاقة

١١- الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الفجر

١٢- الصبا ريح تهب من الشرق، والدبور ريح تهب من الغرب

ترقب وحذر ودعاء

عن عائشة روج النبي ﷺ أنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتْ الرِّيحُ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ قَالَتْ وَإِذَا تَخَيَّلَتْ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا"[رواه مسلم، الحديث ١٤٩٦]

*****

نبي الله صالح عليه السلام

لننظر كيف تعملون

لما أهلك الله عادًا بدنوهم، وطهر الأرض من أرجاسهم، أورثها ثمود، وهي قبيلة مشهورة كانوا يسكنون بالحجر شمال الجزيرة العربية بين تبوك والحجار[1]، وقد أنعم الله عليهم بالنعم العظيمة، والآلاء الجسيمة، قال الله تعالى ﴿وَتَوَأَكُمْ[2] فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[3]

فسكنوا السهول صيفًا، وسكنوا الجبال شتاءً[4]، وقال تعالى ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[5] فجعلها الله عمارًا يعمروها ويستعلوها[6]، وكانوا ﴿ءَامِنِينَ* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[7] أي متراكم كثير حسن بهي ناضج[8]، وما كل هذه الآلاء والنعم إلا لأجل الامتحان والاختبار، قال تعالى. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[9]، ولذلك حذر النبي ﷺ أصحابه

١- انظر ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، جـ٦،ص٤٦٧

٢- نواكم أسكنكم

٣- من الآية ٧٤ من سورة الأعراف

٤- انظر تفسير آية الاعراف في تفسير الجلالين

٥- من الآية ٦١ من سورة هود

٦- تفسير ابن كثير، جـ٢، ص٤٦٦

٧- الآيات ١٤٦ — ١٤٨ من سورة الشعراء

٨- ابن كثير، قصص الأنبياء، ص١٥١

٩- الآية ١٤ من سورة يونس

ومن حلفهم من الانعماس في الدنيا ولذاتها فقال: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[رواه مسلم، من الحديث ٤٩٢٥]

فصدهم عن السبيل:

ولكن ثمود لم تستقم على مراد الله ومنهجه، ودلك لانعماسهم في النعم والملذات وبسياهم هدى الله تزيين الشيطان لهم، قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[1] حتى إنهم كانوا مستبصرين في ضلالتهم معجبين بما يحسبون أنهم على هدى وصواب وهم على الضلال[2] فعبدوا غير الله وكانوا أشد من قوم عاد ظلمًا وعُلُوًّا[3]

دليل الهداية.

ولأن الله تعالى﴿ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[4] أرسل لهم نبيه صالحًا عليه السلام لهدايتهم وإرشادهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5]

١- الآيه ٣٨ من سورة العنكبوت

٢- انظر تفسير الطبري لهذه الاية

٣- د محمد بكر إسماعيل، قصص القرآن، ص٥٢

٤- من الآيه ١٤٧ من سورة الانعام

٥- الآية ٢١٣ من سورة البقره

فهذه هي مهمة المؤمن في حياتنا المعاصرة، فقد كلفه الله تعالى مهمة هي أرقى المهمات، وبواجب هو أسمى الواجبات"دلك الواجب هو" هداية البشر إلى الحق سبحانه، وإرشاد الناس جميعًا إلى الخير، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

ومن هنا كان الفاتح المسلم أستاذًا يتصف بكل ما يجب أن يتحلى به الأستاذ من نور وهداية، ورحمة ورأفة، وكان الفتح الإسلامي فتح تمدين وتحضر وإرشاد وتعليم[2].

اصطفاء وتهيئة

وقد كان نبي الله صالحًا ﷺ من﴿الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[3]، وهكذا هو شأن الرسل جميعًا عليهم السلام، يختارهم المولى ﷻ من أواسط القوم رفعة، ومن أشرفهم نسبًا، ومن أذكاهم عقلاً، قال تعالى. ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[4]، وقال جل شأنه: ﴿ وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى

١- الآيتان ٧٧،٧٨ من سورة الحج

٢- حضن الباء إلى أي شيء يدعو الناس ، ص ٣٤،٣٥

٣- من الآية ٤٧ من سورة ص

٤- من الآية ٧٥ من سوره الحج

الْعَالَمِينَ﴾[1]، وهذا الاصطفاء والاختيار إنما هو مخص فضل من الله جل في علاه على هؤلاء الرسل، وقد سبق في علمه أنه لا يوجد في أمة من الأمم أفضل من هؤلاء الرسل، فقد قال العليم الحكيم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2]، بل إن أقوامهم ليشهدون ويقرون بفضلهم كما أقرت ثمود لصالح عليه السلام، قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾[3] أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت؛، فقد عهدناك ثاقب الرأي، لا تقول إلا حقًا، ولا تتكلم إلا بخير، وكنا ندخرك لملمات الدهر، تضيء ظلماتها نور عقلك، وتحل معضلاتها بصائب رأيك، وكنا نرجو أن تكون عدتنا حين يحزم الأمر ويشتد الخطب[5].

وهنا تبرز أهمية تهيئة جو الدعوة والمدعوين باستهلال الدعاة بحس أخلاقهم، وكريم خصالهم، وصدق أقوالهم، وعفة أيديهم عن دنيا أقوامهم

تشخيص ودواء:

كانت دعوة رسل الله الكرام (عليهم السلام) ترتكز على دعوة التوحيد أولاً ثم يُعْمِلون جهودهم في معالجة ما في قومهم من أدواء، واستئصال ما في نفوسهم من أمراض، وأول هذه الأدواء التي بدأ بها صالح عليه السلام مع قومه، داء الانعماس في ملذات الدنيا ومتعها، فتوجه إليهم مسهًا لما وصلوا إليه من انعماس مذموم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *

١- من الآية ٨٦ من سورة الأنعام

٢- من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

٣- من الآية ٦٢ من سورة هود.

٤- انظر تفسير الآية في تفسير ابن كثير

٥- د. محمد بكر إسماعيل، قصص القرآن، ص٥٣

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ *وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1].

فانعماس النفس البشرية كليًا في ملذاتها يجعلها تغفل عن حقائق الأمور وطبائعها رغم ظهورها ووضوحها، فهذا الانغماس الكلي جعلهم يستشعرون -رغم التيطان ذم أيضًا- أن هذه النعم دائمة دون سلب، ومستمرة دون فوت، وباقية دون تغيير، وهذا يشعرهم بالبقاء دون الفناء، وهي آفة عظيمة نبَّه إليها نبي الله صالح عليه السلام.

ثم يبين لهم داءً آخر يصدهم عن معرفة الحق واتباعه، ألا وهي تلك النعمة والدلة لكبراء القوم من المسرفين المفسدين وهي طاعة لمخلوق مرفوضة في مقابل طاعة الخالق فتوجه إليهم ناصحًا لهم بأن يتخلوا عن هذا الداء، قال جل في علاه ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ *الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[2]، ولعل هذه الأدواء النفسية هي السبب في رفضهم للحق، وتَعَنُّتِهم في قوله، فالعملة داء يكدر صفاء النفس وبقاءها، وطاعة المستكبرين ظلمة تعتم نور العقل أن تنظر إلى نَلَح[3] الحق

وما أسألكم عليه أجرًا.

من سنن الرسل والدعاة أنهم لا يتعون على مهمتهم السامية أجرًا ولا مالاً، كما أعلن نبي الله صالح عليه السلام ذلك لقومه حين قال ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ

١- الآيات ١٤٦- ١٥٠ من سورة الشعراء

٢- الآيات ١٥١،١٥٢ من سورة الشعراء

٣- نلَح الحق أي وضوحه، وظهوره من نوره وبهائه، ويقال الحق اللح، والباطل الخلح، أي مظلم

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، فصاحب الرسالة يقصد بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله، وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر، وبذلك يكون جندي فكرة وعقيدة، لا جندي غرض ومنفعة"[2]

غيٌّ وضلال:

وتمادى القوم في غيهم وضلالهم، وأغلظوا له في القول، واتهموه بالسحر، وسألوه معجزة تكون دليلاً على صدقه، وبرهانًا على صحة دعوته، وتفننوا في هذا الطلب وغلوا فيه وبالغوا، سخرية منه، واستهزاء بدعوته[3]، قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ*مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4]

ذكر المفسرون[5] أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام فدعاهم إلى الله، وذكّرهم وحذرهم، ووعظهم وأمرهم ونهاهم، فقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة – وأشاروا إلى صخرة هناك – ناقة، من صفاتها كيت وكيت، وذكروا أوصافًا سموها، وتعنتوا فيها، فقال لهم النبي صالح عليه السلام أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به إليكم، قالوا نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل

١- الآية ١٠٩ من سورة الشعراء.

٢- حسن الباشا، رسالة التعالم ص٣٥٩

٣- انظر - محمد بكر إسماعيل، قصص القرآن، ص٥٤

٤- الآيتان ١٥٣، ١٥٤ من سورة الشعراء

٥- انظر ابن كثير، قصص الأنبياء، ص ١٥٣

ما قُدر له أن يصلي، ثم دعا ربه ﷻ أن يحييهم إلى ما طلبوا، فأمر الله ﷻ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشَرَاء[1] على الوجه الذي طلبوه، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا، فآمن بعضهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[2]

تشريف وتعظيم:

وقد سميت هذه الناقة (ناقة الله) تشريفًا لها وتعظيمًا لشأنها، واشترط عليهم صالح عليه السلام أن يتركوها ترعى في أرض الله تعالى، ولا يتعرضوا لها بسوء حتى لا يصيبهم العذاب الأليم، واقتضى الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال بأنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم[3]. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4]

١- عشراء الناقة التي مضى من حملها عشرة أشهر

٢- الآية ٥٩ من سورة الإسراء

٣- انظر د. محمد بكر إسماعيل، قصص القرآن، ص ٥٤، وانظر ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، جـ٦، ص ٤٦٨

٤- الآية ٧٣ من سورة الأعراف

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ*وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]

مكر وطغيان:

فلما طال عليهم هذا الحال اتفق كبارهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها، ويتوفر لهم الماء، ويزين لهم الشيطان أعمالهم.

قال تعالى:﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف[3]

ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يمكرون ويدبرون لقتل نبيهم، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ*قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَاشَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[4]

أي قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله أن نذهب لصالح في بيته، فنقتله هو وأهله، ثم نقول لرهط صالح الذي له ولاية الدم ما قتلناه ولا شهدنا قتله. وطوا أنهم قادرون على ذلك، ولكن الله كان من ورائهم محيطًا.[5]

١- الآيتان ١٥٥،١٥٦ من سورة الشعراء

٢- الآية ٧٧ من سورة الأعراف

٣- انظر اسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء ص١٥٤

٤- الآيتان ٤٨،٤٩ من سورة النمل

٥- انظر د. محمد بكر اسماعيل، قصص القرآن، ص ٥٥، وانظر ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، جـ٦، ٤٦٨

ومكروا مكرًا:

قال تعالى ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ*فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ*فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ*وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1]

وقد متعهم الله في ديارهم ثلاثة أيام، في اليوم الأول اصفرت وجوههم، وفي اليوم الثاني احمرت، وفي اليوم الثالث اسودت وجوههم، وفي ذلك يقول الله ﷻ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2]

وفي صبيحة اليوم الرابع جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفلهم فعاصت الأرواح، ورهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، فأصبحوا في ديارهم جاثمين جثثًا لا أرواح فيها، ولا حراك بها قال تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ*وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ*كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾[3].

١- الآيات ٥-٥٣ من سورة النمل

٢- الآية ٦٥ من سورة هود

٣- الآيات ٦٦-٦٨ من سورة هود

وقال جل شأنه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا*إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا[1]*فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا*فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا*وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[2]

ولقد كان الطغيان هو السبب في تكذيب ثمود وكان كفرهم وقتلهم للناقة هو سبب إهلاكهم، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال "لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ"[رواه البخاري، الحديث ٣١٢٩]

إهلاك مع الصلاح:

وقد عرفنا من الآيات أن الذي قتل الناقة واحد منهم تعاون معه في قتلها آخرون، لكن النعمة تقع عليهم جميعًا، لأنهم لم يأخذوا على يد الظالم ولم يمنعوه من عقرها، بل استحسنوا فعلته واستحقوا بوعيد الله ﷻ فأهلكهم الله إهلاك من لا رادَّ لقضائه ولا معقّب لحكمه، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3]

وما أخذ الله القرية إلا لأن الظلم قد عمّ، والشر قد انتشر، وانتكست الفطر، وطغى الناس وتجبروا، وقد يشمل هذا الأخذ الصالحين إذ لم يكونوا مُصْلحين، كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

١- عن عبد الله بن زمعة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله ﷺ "إذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة"[رواه البخاري، من الحديث ٤٥٦١]

٢- الآيات ١١-١٥ من سورة الشمس

٣- الآية ١٠٢ من سورة هود

مُصْلِحُونَ﴾[1]

وكما سألت أم المؤمنين زينب بنت جحش (رضي الله عنها) رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال "نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"[رواه البخاري من الحديث ٩٧ ٣]

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ"[رواه الترمذي، الحديث ٢٠٩٥][2]

١- الآية ١١٧ من سورة هود

٢- انظر هذا البحث في د وهبة الزحيلي ، الفقه الإسلامي وأدلته، دمشق دار الفكر ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ط٣ ،ج١ ،ص [٢٥٩-٢٦١]